الابداع العربي في الموسيقى العالمية

توفيق الباشا

ان التحولات الحياتية التي تجابه الانسان العربي في عصرنا الحاضر ـ عصر فجر القرن الحادي والعشرين ـ تحتم علينا أن نحدد موقفنا تجاه موسيقانا العربية وكيفية جعلها من الموسيقى ذات اللغة العصرية والمميزة في آن، لتجسد طموح أجيالنا الحاضرة والمستقبلية. لذلك كان التركيز على هذا الموضوع:

الابداع العربي في الموسيقى العالمية

لقد خاض المؤلف الموسيقي العربي معركته مع هذه التحولات، وكان رائده أن ينطلق بموسيقاه التي يؤمن بما تتضمنه من جمال واصالة ـ لحن وايقاع وشكل ـ وهي التي كانت نتاجاً لحضارات إنسانية عبر تاريخها البعيد، فاكتسبت هذا الثراء الغني من تفاعلها مع محيطها فأخذت وأعطت، وتأثرت وأثرت من خلال مسيرتها الحضارية، وشاهدنا الاهتمام الكبير الذي أولاه إياها مفكرونا وفلاسفتنا منذ ما يقارب الثلاثة عشر قرناً. وهذا كتاب الموسيقى الكبير لأبي نصر محمد الفارابي والذي يقول في مقدمته لهذا الكتاب الدكتور محمود أحمد الحنفي: «والناظر في هذا الكتاب يلمح فيه أن الفارابي لم يكن فيلسوفاً عظيماً وعالماً فحسب، وخاصة في صناعة الموسيقى النظرية، بل إنه لا بد أن يكون من مزاولي هذه الصناعة بالفعل».

وهذا الشيخ الرئيس ابن سينا، وقد أفرد في موسوعته المسماة «كتاب الشفاء» قسماً مهماً للبحث في شأن الموسيقى كما في كتاب النجاة وكتاب «دانش نامه» الذي كتبه بالفارسية. وهناك كتب ورسائل في الموسيقى له أيضاً وأشهرها «المدخل إلى صناعة الموسيقى». وللفيلسوف الكندي ثماني رسائل تدور جميعها حول أصول التأليف والتركيب واللحون والايقاع، وأكثرها من محفوظات المتاحف في بعض العواصم الأوروبية، وقد نشر بعض منها. وكانت الافادة من تحليلها لا تقدر، ومن أشهرها رسالة في «اللحون والنغم» التي شرح فيها الابعاد الطنينية التي توصلنا إلى التآلف الصوتي الذي كان المنطلق لفن الهارموني في نهضة الموسيقى في الغرب، كما ليحيى بن المنجم رسالة في الموسيقى أتت خلاصة لما عايشه منها في أواخر القرن الثالث الهجري، والأرموي الذي اهتم بالعلم الموسيقي وقد ترك لنا بحثاً قيماً نشر مؤخراً بعد تحقيق وبحث وتحليل لما حواه.

مررت عبر هذه المراحل التاريخية لأبيِّن مدى اهتمام علمائنا وفلاسفتنا بالمسألة الموسيقية إلى جانب اهتماماتهم بعلم الفلك والرياضة والطب والتاريخ والهيئة والأخلاق، إلى غيرها من المواضيع الإنسانية جميعاً، فوضعوا الموسيقى

في المستوى العلمي، بعد أن اكتشفوا أهميتها في تكوين الإنسان في المجتمع الحضاري.

نتساءل عن نتيجة هذه الأبحاث وما فعلت في الفن الموسيقي اليوم وما تركته في وجدان العاملين فيه، إنها أعطته أبعاداً عقلانية وروحية جعلت منه علماً وصناعة يتشرف به من يتعاطاه. وعلى هذا الأساس انتشر وتعامل معه أساطين النغم في المشرق العربي حتى واصل امتداده إلى الديار الأندلسية حيث تأسست المعاهد الموسيقية، ولأول مرة في التاريخ على مستوى أكاديمي، وعبر من هذه الديار التي ازدهر فيها هذا الفن وأينع، إلى القارة الأوروبية حيث كان البذرة التي أنبتت العلوم والفنون الموسيقية العالمية التي نعيشها في عصرنا الحاضر.

إن المؤلف الموسيقي العربي الذي استيقظ بعد هجعة ثقيلة، وعى ذاته وأخذ يطلع على تراثه ويتعمق بدراسته له، ثم اتجه نحو مناهل العلم الموسيقي العالمي، فأدرك بأن عليه مسؤولية نبش حضارته الموسيقية ونفض الغبار عنها وانتشالها من الموقع المتردي الذي وصلت إليه إلى موقع تتمثل فيه شخصية الإنسان العربي المعاصر للتحولات الفكرية والثقافية والفنية في العالم.

وعندما نذكر التراث ـ وقد أتينا على ذكره مروراً ـ فيجب أن لا نقف منه موقف التهيب والمحافظة عليه كما هو وكما وصل إلينا عبر مداخلات وتنقلات المرددين والمصوتين ـ حيث لم ينل نصيبه من التدوين كما هو الحال بالتراث الأدبي ـ فنحن نشك في الكثير مما نقل عن طريق هؤلاء مع احترامنا لما حفظوه من هذا التراث. ونذكر هنا قول الامام الغزالي: «لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته». وهنا يأتي دور الفنان المتعمق في دراسته والمتفهم للمقاييس والمعايير المتفق عليها عالمياً، للتثبت من مضمونها. وقد وعى المؤلف الموسيقي العربي ما يجابهه من صعاب في هذا الشأن، فأخذ بوجهة نظر أهل العلم والمعرفة ـ وكان مؤتمر الموسيقى العربية الذي عقد في القاهرة في سنة ١٩٣٢ وقد ضم كبار علماء الموسيقى المعروفين في العالم من الشرق ومن الغرب. وقد نشر نتيجة أبحاثه ودراساته في كتاب كان خير مرجع لكل من أراد أن يطلع على أسرار موسيقاه العربية الغنية في تلون مقاماتها وتنوع إيقاعاتها وجمال تراكيبها الفنية.

وقد لاحظ المؤلف الموسيقي العربي بعد معرفته لموسيقاه ودراسته للموسيقى العالمية بأن عليه أن يسلك النهج الذي يوصله إلى النهوض بموسيقاه أن يضع كل مكتسباته العلمية والفنية بخدمتها لتنافس موسيقى العالم، والتي هي منه، إنْ في مضمونها الأصيل أو في أدائها بلغة العصر الذي تعيشه أو في تعبيرها عن أحاسيس الإنسان العربي المعاصر.

وها هو جيل من المؤلفين الموسيقيين المنتشرين في بعض الأقطار العربية، يعمل بجد ويتعامل مع موسيقاه بجد واحترام وقد أخذ على نفسه بأن يعمل على تطوير وتجديد لغتنا الموسيقية، منطلقة من جذورها بشرطين: أن نحافظ على عبقرية غناها المنفرد أولاً، وثانياً أن نتوصل إلى الأداة الفنية العملية التي تجعل منها لغة تعبر عن مشاعرنا وهمومنا بحرية وصدق وإخلاص. لتدخل إلى العالم ـ عالم الموسيقى من بابه الكبير، ولتأخذ مكانها اللائق الذي تستحقه.

لقد بدأ انتشار الابداع العربي في الموسيقى العالمية بواسطة الأوركسترات السمفونية العالمية ـ بعد انتشاره في موطنه في مناسبات موسمية، مهرجانات احتفالات عامة، أعمال إذاعية في مطلع الخمسينات حتى أواخر السبعينات وكانت أعمالاً تبشر بالخير وتهيىء للانطلاقة الموعودة ـ فمن لبنان نذكر المؤلفات السمفونية للدكتور وليد غلمية وقد عزفتها الأوركسترات السمفونية في أثينا. ـ (الحركة الثالثة من السمفونية رقم ٥).

ـ المؤلفات السمفونية لبشارة الخوري ـ حفيد الأخطل الصغير ـ وقد عزفتها أوركسترا كولون في فرنسا. (رقص للأوركسترا) ٢٠, ٢.

ـ سمفونية السلام لتوفيق الباشا والتي عزفتها أوركسترا لياج الفيلهارمونية في شباط ـ فبراير ١٩٨٨ في لياج وبروكسيل وفرفيه في بلجيكا. (الحركة الأولى من السمفونية).

(وأرجو بأن لا يعتبر تقصيراً مني إذا لم آت على ذكر المؤلفين الموسيقيين الزملاء الذين يتعاملون مع الموسيقى العالمية وهم منتشرون في الأقطار العربية الشقيقة، وذلك لعدم معرفتي الصادقة بأعمالهم وليس تجاهلاً. وهذا أمر يجب أن نستدركه في المستقبل).

وهناك الابداع العربي في الموسيقى العالمية أداء وعزفاً، وقد اشتهر في لبنان عازفون على آلة البيانو منهم وليد عقل، عبدالرحمن الباشا، وليد حوراني وغيرهم. ومنهم على سبيل المثال من اشترك مع كبرى أوركسترات السمفونية في العالم «أوركسترا برلين السمفونية» وهو عازف البيانو عبد الرحمن الباشا كما اشترك مع غيرها من أوركسترات العواصم الأوروبية والأمريكية واليابان، وأدري بأن هناك، غيرهم من الأقطار العربية يقومون بعين الدور وأكرر اعتذاري لعدم معرفتي بهم مع علمي بوجودهم وعطائهم.

ويسعدنا جميعاً بأن نكون قد وصلنا بموسيقانا العربية العظيمة إلى منابر العالم، كما كنا نحلم بالماضي وقد استقبلت بما تستحقه من حسن استقبال من قبل جماهير المستمعين والنقاد على السواء. إضافة إلى ابداع شبابنا في تقديم روائع المؤلفين العالميين عزفاً وأداء، حائزين على التقدير الكبير والمستمر.

أرجو بأن تكون كلمتي هذه لافتة نظر واهتمام لهذا التجمع الثقافي الفكري العربي الكبير وايلاء هذه المسألة أهميتها من الحصانة والتشجيع، لأننا حتى الساعة لم ندر بأن هناك قطراً عربياً قد استضاف مؤلفاً موسيقياً أو عازفاً عربياً ليقدم فنه لجمهوره العربي، وهو المجهول منه حتماً. بينما تتبنى نشاطه الفني الجهات الفنية والمسارح المخصصة للعروض السمفونية في العالم.

إن هناك حرباً اعلامية ضد هؤلاء في مواقعهم، ولا لزوم بأن نذكر بمن يثيرها ضدهم ولماذا. إن أعداءنا يدركون بأن وصولنا إلى هذه المنابر العالمية هو اثبات على عكس ما يشيعونه عن تخلفنا الثقافي والحضاري.

وبالرغم من ذلك فما زال فنانونا مثابرين وصابرين ضد جميع الضغوط التي تواجههم المادية والمعنوية، لكن إلى متى نتركهم عرضة للاغراءات:

- إغراء الزيارات وغيرها التي تأباها عليهم قوميتهم وانتماؤهم لوطنهم العربي الكبير. فلنجد البديل عن هذه الاغراءات قبل فوات الفرص، وإلا خسرنا أعزّ ما تملك الأمم بعد أرضها - ثقافتها وفكرها الممثلين في إنسانها.

وهناك أمر ذو أهمية نتحمل مسؤوليته جميعاً، وهو نشر الوعي الموسيقي الجاد بين جماهير مستمعينا الذين هم تحت رحمة ما تقدمه لهم وسائل الاعلام - السمعي والمرئي - من البضاعة والمصنفات غير الفنية والتي تعرفونها. إن مهمتنا صعبة، ولكنها غير مستحيلة، هناك المراكز الثقافية والمؤسسات التربوية العالمية المنتشرة في العالم العربي، فبواسطتها نستطيع أن نقوم - أفراداً وجماعات - بنشر الوعي الموسيقي الجاد، وباتصالات فردية وجماعية أيضاً مع الجهات المعنية والمسؤولة عن وسائل الاعلام - اذاعة وتلفزة - نتمنى عليها بأن تخصص بعض الوقت من برامجها الحافلة بكل شيء إلا الموسيقى الجادة، على أن تعرض هذه الموسيقى عرضاً فنياً مشوقاً ولائقاً وبشرح مقبول لما تقدمه من هذه الموسيقى الإنسانية للمستمع والمشاهد العربي. والذي علينا مسؤولية الحفاظ على أحاسيسه وتذوقه لكل فكر وفن جميل - على هذا الإنسان، وأين ما وجد، أن يدرك بأن هناك أشياء جميلة يجب أن يطلع عليها ويسمعها ويحبها ويتعلق بها، ليدرك بأن الحياة جميلة وتستحق بأن يحياها بحرية وكرامة(*).

(*) دراسة قدمت إلى الملتقى الأول للابداع العربي في أكادير (المغرب).